الباب الخامس

الصحبة

ولما كان السفر لابد فيه من دليل ، وإلا ضل عن سواء السبيل افتتح الباب الخامس بذكر الصحبة وشروط المصحوب وآدابها فقال :

[لا تصحب من لا ينهضك حالهُ ، ولا يدلك على الله مقالُه] .

قلت : الذى ينهضك حاله هو الذى إذا رأيته ذكرت الله ، فقد كنت فى حال الغفلة ، فلما رأيته نهض حالك إلى اليقظة ، أو كنت فى حالة الرغبة ، فلما رأيته نهض حالك إلى الزهد ، أو كنت فى حالة الاشتغال بالمعصية ، فلما رأيته نهض حالك إلى التوبة ، أو كنت فى حالة الجهل بمولاك فنهضت إلى معرفة من تولاك وهكذا . والذى يدلك على الله مقاله هو الذى يتكلم بالله ، ويدل على الله ، ويغيب عما سواه ؛ إذا تكلم أخذ بمجامع القلوب ، وإذ سكت أنهضك حاله إلى علام الغيوب ، فحاله يصدِّق مقاله ، ومقاله موافق لعلمه ، فصحبة مثل هذا إكسير يَقْلِب الأعيان ، وهو مفهوم من قول الشيخ : لا تصحب من لا ينهضك حاله إلخ : أى بل اصحب من ينهضك حاله ، وبذلك يدلك على الله مقاله . والصحبة فى طريق التصوف أمر كبير فى السير إلى الله تعالى حسبما جرت به عادة الله تعالى وحكمته ، حتى قال بعضهم : من لا شيخ له فالشيطان شيخه . وقال آخر : الإنسان كالشجرة النابتة فى الخلاء ، فإن لم تقطع وتقلم كانت دكارة . وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل من لا شيخ له فى هذا الشأن لا يُفرَح به .

ومن شروط الشيخ أربعة : علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، فالعلم الصحيح : هو ما يتيقن به فرضه ، ولابد أن يكون عالمًا بالمقامات والمنازل التى يقطعها المريد ، وبغرور النفس ومكايدها ، قد سلك ذلك على يد شيخ كامل . وذاق ذلك ذوقًا لا تقليدًا ، وهو المراد بالذوق

الصريح . والهمة العالية هى المتعلقة بالله دون ما سواه . والحالة المرضية : وهى الاستقامة بقدر الاستطاعة ، ولابد أن يكون جامعًا بين حقيقة وشريعة ، وبين جذب وسلوك ، فبجذبه يجذب القلوب وبسلوكه يخرجها من حالة الجذب إلى البقاء ، فالسالك فقط ظاهرى لا يجذب ولا يحقق ، والمجذوب فقط لا يسير ولا يوصل ، وفساد صحبته أكثر من نفعها . قال فى أصول الطريقة : ومن فيه خمس لا تصح مشيخته : الجهل بالدين ، وإسقاط حرمة المسلمين ، ودخول ما لا يعنى ؛ واتباع الهوى فى كل شىء ، وسوء الخلق من غير مبالاة اهـ . فصحبة مثل هذا ضرر محض وإليه أشار بقوله :

[**ربما كنت مسيئًا فأراك الإحسانَ منك صحبتُك إلى من هو أسوأ حالا منك**] .

قلت : رب هنا للتكثير ، وصحبتك فاعل بأراك ، والإحسان مفعول مقدم ، والتقدير : ربما تكون مسيئًا فى حالك مقصرًا فى عملك ، فإذا صحبت من هو أسوأ حالا منك أراك أى أبصرتك صحبتُك إلى من هو أسوأ حالا منك . الإحسان منك لما ترى ما يصدر منها من الإحسان ومن المصحوب من التقصير والنقصان ، فتعتقد المزية عليه ، لأن النفس مجبولة على رؤية الفضل لها ، ومشاهدة التقصير من غيرها علمًا أو عملاً أو حالا ، بخلاف ما إذا صحبت من هو أحسن منها فإنها لا ترى من نفسها إلا التقصير ، وفى ذلك خير كثير .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : أوصانى حبيبى فقال : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالبًا من معصية الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينًا ، وقليل ما هم .

وقال له أيضًا : لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ، ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلّ ما يدوم ، واصحب من إذا ذُكر ذكر الله ، فالله يغنى به إذا شهد ، وينوب عنه إذا فقد ، ذكره نور القلوب ، ومشاهدته مفاتيح الغيوب . اهـ .

وحاصله : لا تصحب من تتكلف له فوق جهدك ، ولا من يتكلف لك كذلك ، وخير الأمور أوساطها ، وهذا والله أعلم فى صحبة الإخوة . وأما صحبة الشيخوخة فكل ما أمر به الشيخ أو أشار إليه أو فهمت أنه يحب ذلك فلابد أن

تبادر إليه بقدر الإمكان ولو كان محالا عادة لأخذت فى التهيؤ للفعل . قال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن أحمد بن عبد الله الفقير : الصديق هو الذى إذا قال له شيخه ادخل فى عين المخياط لا يتردد ويقوم يبادر فى امتثال ما أمر ولو كان لا يتأتى منه ذلك . وقال أيضًا : صاحبى هو الذى نفتله بشعرة اهـ .

وقال سيدى على رضى الله عنه فى كتابه : اعلم أنه لا يقرِّب طالبَ الله إلى الله شىء مثل جلوسه مع عارف بالله إن وجده ، وإن لم يجده فعليه بذكر الله ليلا ونهارًا قائما وقاعدًا مع العزلة عن أبناء الدنيا ، بعدم الجلوس معهم ، وعدم الكلام بذلك ، وعدم النظر فيهم ، لأنهم سم خارق ، ولا يُبعد من الله شىء مثل جلوسه مع فقير جاهل . الفقير الجاهل أقبح من العامى الغافل بألف ضعف . الجلوس مع العارف بالله أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام الغافلين ، والجلوس مع العامى الغافل أفضل من الجلوس مع الفقير الجاهل . لا شىء فى الوجود يسوِّد قلب المريد مثل جلسة مع الفقير الجاهل ، كما أن العارف بالله يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة ، كذلك الفقير الجاهل بالله ربما أتلف المريد عن مولاه بنظرة أو بكلمة ، فما فوقها . ويرحم الله المجذوب حيث يقول فى بعض كلامه : الجلسة مع غير الأخيار تردُل ولو تكون صافيًا اهـ .

وقال سهل بن عبد الله رضى الله عنه : احذر صحبة ثلاث من أصناف الناس : الجبابرة الغافلين . والقراء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين اهـ . وزاد الشيخ زروق : علماء الظاهر ، قال لأن نفوسهم غالبة عليهم اهـ .

قلت : الجلوس معهم اليوم أقبح من سبعين عاميًّا غافلا وفقيرًا جاهلا ، لأنهم لايعرفون إلا ظاهر الشريعة ، ويرون أن من خالفهم فى هذا الظاهر خاطئ أوضالّ ، فيجهدون فى رد من خالفهم يعتقدون أنهم ينصحون وهم يغشون . فليحذر المريد من صحبتهم والقرب منهم ما استطاع ، فإن توقف فى مسألة ولم يجد من يسأل عنها من أهل الباطن فليسأله على حذر ويكون معه كالجالس مع العقرب والحية ، والله ما رأيت أحدًا قط من الفقراء قرب منهم وصحبهم فأفلح أبدًا فى طريق الخصوص ، ويرحم الله أبا ذر الغفارى رضى الله

عنه حيث قال : والله لا أسألهم دنيا ولا أستفتيهم عن دين ا هـ . قال هذا فى علماء الصحابة الأخيار رضى الله عنهم ، فما بالك اليوم حين اشتغلوا بجمع الدنيا وتزيين الملابس ، وتكبير العمائم ، وتحسين المآكل والمساكن والمراكب ، ورأوا ذلك سنة نبوية ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وكان يحيى بن معاذ الرازى رضى الله عنه يقول لعلماء وقته : يامعشر العلماء دياركم هامانية ، ومراكبكم قارونية ، وأطعمتكم فرعونية ، وولائمكم جالوتية ، ومواسمكم جاهلية ، وقد صيّرتم مذاهبكم شيطانية ، فأين الملة المحمدية ؟

الأعمال والأحوال

ومما يتأكد النظر إليه فى المصحوب : الزهد فى الدنيا ، ورفع الهمة عنها ولو قل عمله فى الظاهر ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[**ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب**] .

قلت : الزهد فى الشىء : هو خروج محبته من القلب وبرودته منه . وعند القوم : بغض كل مايشغل عن الله ، ويحبس عن حضرة الله ، ويكون أولا فى المال . وعلامته : أن يستوى عنده الذهب والتراب ، والفضة والحجر ، والغنى والفقر ، والمنع والعطاء . ويكون ثانيًا فى الجاه والمراتب . وعلامته : أن يستوى عنده العز والذل ، والظهور والخمول ، والمدح والذم ، والرفعة والسقوط . ويكون ثالثًا فى المقامات والكرامات والخصوصيات ، وعلامته : أن يستوى عنده الرجاء والخوف ، والقوة والضعف ، والبسط والقبض ، يسير بهذا كما يسير بهذا ، أو يعرف فى هذا كما يعرف فى هذا ، ثم يكون الزهد فى الكون بأسره بشهود المكون وأمره .

فإذا تحقق المريد بهذه المقامات فى الزهد أوجلها كان عمله كله عظيمًا كبيرًا فى المعنى عند الله، وإن كان قليلا فى الحسن عند الناس، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام : «عَمَلٌ قَليلٌ فى سنَّةٍ خَيْرٌ مِنْ عَملٍ كَثِيرٍ فى بِدْعَةٍ» .

وأى بدعة أعظم وأشنع من حب الدنيا والانكباب عليها بالقلب والقالب ،

الذى لم يكن فى زمنه صلى الله عليه وسلم ولا فى زمن الصحابة ، حتى ظهرت الفراعنة فبنوا وشيدوا وزخرفوا ، فهذه هى البدعة الحقيقية ، فعمل هؤلاء قليل فى المعنى،وإن كان كثيرًا فى الحس ، إذ لاعبرة بحركة الأشباح ، وإنما العبرة بخضوع الأرواح . عبادة الزاهد بالله لله ، وعبادة الراغب بالنفس للنفس ، عبادة الزاهد حية باقية ، وعبادة الراغب ميتة فانية ، عبادة الزاهد متصلة على الدوام ، وعبادة الراغب منقطعة بلا تمام . عبادة الزاهد فى مساجد الحضرة التى أذن الله أن ترفع ، وعبادة الراغب فى مزابل القذرات التى أذن الله أن توضع ، ولذلك قال بعضهم : عبادة الغنى كالمصلى على المزبلة ، ومامثل عبادة الزاهد مع قلتها فى الحس وكثرتها فى المعنى ، وعبادة الراغب مع كثرتها فى الحس وقلتها فى المعنى إلا كرجلين أهديا للملك : أحدهما أهدى ياقوتة صافية صغيرة قيمتها قنطارًا ، والآخر أهدى ستين صندوقًا خاوية فارغة ، فلا شك أن الملك يقبل الياقوته ويكرم صاحبها ، ويرد الصناديق ويهين صاحبها ، ويغضب عليه لكونه استهزأ بالملك حيث أهدى له خُشبًا خاوية شهرتها أعظم من منفعتها .

وسمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : الراغب فى الدنيا غافل ولو كان يقول الله الله بلسانه على الدوام ، إذ لاعبرة باللسان . والزاهد فى الدنيا ذاكر على الدوام ولو قل ذكره باللسان اهـ .

قلت : وبهذا فسر بعضهم قوله تعالى : (لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا)[1] .

أى مع الغفلة والرغبة ولو كثر فى الحس اهـ .

وقال سيدنا علىّ كرم الله وجهه : كونوا لقبول العمل أشد منكم اهتمامًا للعمل ، فإنه لم يقل عمل مع التقوى ، وكيف يقل عمل يتقبل اهـ .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من زاهد عالم خير وأحب عند الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدًا سرمدًا .

قال بعض السلف : لم يفتكم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بكثرة صلاة ولاصيام إلا انهم كانوا أزهد فى الدنيا ا هـ .

وفى بعض الأخبار : أن سيدنا عيسى عليه السلام مر برجل نائم والناس

---

(١) النساء : ١٤٢ .

يتعبدون ، فقال له عيسى عليه السلام : قم فتعبد مع الناس ، فقال : تعبدت ياروح الله ، فقال له : وماعبادتك ؟ قال : تركت الدنيا لأهلها ، فقال له : نم ، نعمت العبادة هذه أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقال رجل للشيخ أبى الحسن رضى الله عنه : مالى أرى الناس يعظمونك ولم أر لك كبير عمل ، فقال : بسنة واحدة افترضها الله على رسوله تمسكت بها ، فقال له : وما هى ؟ قال : الإعراض عنكم وعن دنياكم اهـ .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وإنما كانت للزهاد هذه الفضيلة لثلاثة أوجه : أما أحدها مافيه من فراغ القلب عن الشواغل والشواغب . الثانى لأنه شاهد بوجود الصدق فى المحبة ، إذ الدنيا محبوبة لاتترك إلا بما هو أحب .

قال عليه الصلاة والسلام : « الصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ » .

قيل على حب العبد ربه . الثالث لأنه دليل على المعرفة بالله والثقة به ، لأن بذل الموجود من الثقة بالمعبود ، ومنع الموجود من سوء الظن بالمعبود اهـ .

ولما كان حسن العمل الظاهر وإتقانه الذى يكون به كماله ونقصانه إنما هو نتائج حسن الباطن وأحواله أشار إلى ذلك بقوله :

[حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق فى مقامات الإنزال] .

قلت : الأعمال حركة الجسم بالمجاهدة ، والأحوال حركة القلب بالمكابدة ، والمقامات سكون القلب بالطمأنينة ، مثال ذلك مقام الزهد مثلا ، فإنه يكون أولا عمله مجاهدة بترك الدنيا وأسبابها ، ثم يكون مكابدة بالصبر على الفاقة حتى يصير حالا ، ثم يسكن القلب ويذوق حلاوته فيصير مقامًا ، وكذلك التوكل يكون مجاهدة بترك الأسباب ، ثم يكون مكابدة بالصبر على مرارة تصرفات الأقدار ، ثم يصير حالا ، ثم يسكن القلب فيه ويذوقه فيصير مقامًا ، وكذلك المعرفة تكون مجاهدة بالعمل فى الظاهرة كخرق العوائد من نفسه ، ثم تكون مكابدة بالمعرفة والإقرار عند التعرفات ، ثم تصير حالا . فإذا سكنت الروح فى الشهود وتمكنت صارت مقامًا ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، يعنى أن الأحوال مواهب من الله جزاء لثواب الأعمال ، فإذا دام العمل واتصل الحال

صار مقامًا ؛ فالأحوال تتحول وتذهب وتجيء ، فإذا سكن القلب فى ذلك المعنى صار مقامًا وهو مكتسب من دوام العمل .

واعلم أن المقام والحال لكل واحد علم وعمل ، فالمقام يتعلق به العلم أولا ، ثم يسعى فى عمله حتى يكون حالا ، ثم يصير مقامًا ، وكذلك الحال يتعلق به العلم أولا ، ثم العمل ، ثم يصير مقامًا حالا ، والله تعالى أعلم . فعلامة التحقق بمقامات الإنزال ، هو حسن الحال ، وعلامة حسن الحال هو حسن العمل ، فإتقان الأعمال وحسنها هو ثمرة ونتيجة حسن الأحوال ، وحسن الأحوال وإتقانها هو نتيجة التحقق بمقامات الإنزال ، أى التحقق بالإنزال فى المقامات .

أو تقول : حسن الأحوال دليل على التحقق بالمقامات التى ينزل الله عبده فيها ، وحسن الأعمال دليل على حسن الأحوال . والتحقق بالحال والسكون فى المقام أمر باطنى ، ويظهر أثره فى عمل الجوارح .

والحاصل : أن حركة القالب تدل على صلاح القلب أو فساده ، لقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِىَ الْقَلْبُ » .

فإذا تحقق القلب بالزهد مثلا وصار له حالا أو مقامًا ، ظهر ذلك على جوارحه ، من الثقة بالله ، والاعتماد عليه ، وقلة الحركة عند الأسباب المحركة لقوله عليه الصلاة والسلام :

« لَيْسَ الزُّهْدُ بِتَحْرِيمِ الْحَلاَلِ وَلاَ بِإِضَاعَةِ الْمَالِ ، إِنَّمَا الزُّهْدُ أَنْ تَكُونَ بِمَا فِى يَدِ اللهِ أَوْثَقَ مِمَّا فِى يَدِكَ » .

وقال الصدّيق رضى الله عنه لأبى الحسن الشاذلى فى النوم : علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ، ووجود الراحة منها عند الفقد . وعلامة التحقق بالإنزال فى مقام التوكل السكون والطمأنينة عند محركات الأسباب . وعلامة التحقق بالإنزال فى مقام المعرفة هو الأدب ظاهرًا وباطنًا ، وحسن الخلق مع كل مخلوق ، ولذلك قال أبو حفص رضى الله عنه : حسن

أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
« لَوْ خَشَعَ قَلْبُ هٰذَا لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ » اهـ .

وراجع ماتقدم من شرح قوله : تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال ، ففيه زيادة شرح على هذا المحل ، والله تعالى أعلم .

وأفضل الأعمال التى يقطع بها المريد المقامات وأقربها هو ذكر الله ، ولذلك ذكره بأثره فقال : لاتترك الذكر لعدم حضور قلبك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذُكر مع وجود غفلة إلى ذِكرٍ مع وجود يقظة ، ومن ذِكرٍ مع وجود يقظة إلى ذِكر مع وجود حضور ، ومن ذِكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز .

قلت : الذكر ركن قوى فى طريق القوم ، وهو أفضل الأعمال قال الله تعالى : (فَاذْكُرُونِى أَذْكرْكُمْ)[1] وقال تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا)[2] .

والذكر الكثير : ألا ينساه أبدًا . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كل عبادة فرضها الله تعالى جعل لها وقتًا مخصوصًا وعذر العباد فى غير أوقاتها إلا الذكر لم يجعل الله له وقتًا مخصوصًا قال تعالى :

(اذْكُرُوا الله ذِكْرًا كَثِيرًا) وقال تعالى : (فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا الله قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ)[3] . وقال رجل : « يَارَسُولَ الله كَثُرَتْ عَلَيَّ شَعَائِرُ الإِسْلَامِ فَأَوْصِنِي بِأَمْرٍ أَدْرِكُ بِهِ مَافَاتَنِي وَأَوْجِزْ ، فَقَالَ : لَايَزَالُ لِسَانُك رَطْبًا بِذِكْرِ الله » . وقال عليه الصلاة والسلام : « لَوْ أَنَّ رَجُلًا فى حِجْرِهِ دَرَاهِمُ يُقَسِّمُهَا وَآخَرُ يَذْكُرُ الله لَكَانَ الذَّاكِرُ لله أَفْضَل » . وقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَا أُنَبِّئُكُم بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيككُمْ وَأَرْفَعِهَا فى دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْر لَكُمْ مِنْ إِنْفَاق الذَّهَب

---

(١) البقرة : ١٥٢ . (٢) الأحزاب : ٤١ . (٣) النساء : ١٠٣ .

وَالْوَرِقِ ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ، قَالُوا : وَمَا ذَاكَ يَارَسُولَ الله ؟ قَالَ ذِكْرُ الله » .

وعن على كرم الله وجهه : « قُلْتُ : يَارَسُولَ الله أىُّ الطُّرُقِ أَقْرَبُ إِلَى الله وَأَسْهَلُهَا عَلَى عِبَادِ الله وَأَفْضَلُهَا عِنْدَ الله تَعَالَى ؟ فَقَالَ يَاعَلىُّ عَلَيْكَ بِمَدَاوَمَةِ ذِكْرِ الله ، فَقَالَ عَلىّ : كُلُّ النَّاسِ يَذْكُرُونَ الله ، فَقَالَ صلّى الله عليهِ وسلم : يَاعَلِىُّ : لَاتَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَايَبْقَى عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ الله ، فَقَالَ لَهُ عَلِىٌّ كَيْفَ أَذْكُرُ يَارَسُولَ الله ؟ فَقَالَ لَهُ صلى الله عليهِ وسلم : غَمِّضْ عَيْنَيْكَ وَاسْمَعْ مِنِّى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ قُلْ مِثْلَهَا وَأَنَا أَسْمَعُ ، فَقَالَ صلى الله عليهِ وسلم : لَا إِلٰهَ إِلَّا الله ثَلَاث مَرَّات مُغَمِّضًا عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قَالَهَا عَلِىٌّ كَذٰلِكَ » .

ثم لقنها على للحسن البصرى ، ثم الحسن لحبيب العجمى ثم حبيب لداود الطائى ، ثم داود لمعروف الكرخى ، ثم معروف للسرىّ ، ثم السرىّ للجنيد ، ثم انتقلت إلى أرباب التربية ، فلا مدخل على الله إلا من باب الذكر ، فالواجب على العبد أن يستغرق فيه أوقاته ، ويبذل فيه جهده ، فإن الذكر منشور الولاية ولابد منه فى البداية والنهاية ، فمن أعطى الذكر فقد أعطى المنشور ومن ترك الذكر فقد عزل ، وأنشدوا :

وَالـذِّكْـرُ أَعْـظَمُ بَـابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ
لِلّٰهِ فَـاجْعَـلْ لَـهُ الْأَنْفَـاسَ حُـرَّاسَـا

فبقدر مايفنى فى الاسم يفنى فى الذات ، وبقدر مايفْتُرُ فى الفناء فى الاسم يكون متفترًا فى الفناء فى الذات ، فيلتزم المريد الذكر على كل حال ولايترك الذكر باللسان لعدم حضور قلبه فيه ، بل يذكره بلسانه ولو كان غافلا بقلبه ، فإن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك فى وجود ذكره ، لأن غفلتك عن ذكره ، إعراض عنه بالكلية ، وفى وجود ذكره إقبال بوجه ما ، وفى شغل

اللسان بذكر الله تزيين جارحة بطاعة الله ، وفى فقده تعرّض لاشتغالها بالمعصية .

قيل لبعضهم : مالنا نذكر الله باللسان والقلب غافل ؟ فقال اشكر الله على ماوفق من ذكر اللسان ، ولو اشغله بالغيبة ماكنت تفعل .

فيلزم الإنسان ذكرٌ اللسان حتى يفتح الله فى ذكر الجنان ، فعسى أن ينقلك الحق تعالى من ذِكْرٍ مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، أى انتباه لمعانى الذكر عند الاشتغالِ به ، ومن ذكْرٍ معَ يقظة إلى ذكر مع وجود حضور المذكور وارتسامه فى الخيال ، حتى يطمئن القلب بذكر الله ويكون حاضرًا بقلبه مع دوام ذكره ، وهذا هو ذكر الخواص والأول ذكر العوام ، فإن دمت على ذكر الحضور رفعك إلى ذكر مع الغيبة عما سوى المذكور ، لما يغمر قلبك من النور ، وربما يعظم قرب نور المذكور فيغرق فى النور ، حتى يغيب عما سوى المذكور ، حتى يصير الذاكر مذكورًا ، والطالب مطلوبًا ، والواصل موصولا .

(وَمَا ذلِك عَلى الله بِعَزِيزٍ)[1] .

أى بممتنع ، فقد يرفع فى أعلى الدرجات من كان فى أسفل الدركات ، وهاهنا يسكت اللسان ، وينتقل الذكر للجنان ، فيصير ذكر اللسان غفلة فى حق أهل هذا المقام ، كما قال الشاعر :

مَـا إنْ ذَكَـرْتُـكَ إلاَّ هَمَّ يَلْعَـنُنِي
سِـرِّى وَقَلْبِى وَرُوحِى عِنْد ذِكـرَاكَـا
حَتَّى كَـأنَّ رَقِيبًـا مِنْـكَ يَهْتِفُ بِى
إيَّـاكَ وَيْحَـكَ وَالـتَّـذْكَـارَ إيَّـاكَـا
أمَا تَرَى الْحَقَّ قَـدْ لاَحَتْ شَوَاهِـدُهُ
وَوَاصَـلَ الْكُـلُّ مِنْ مَعْنَـاهُ مَعْنَـاكَـا

وقال الواسطى مشيرًا إلى هذا المقام : الذاكرون فى ذكره أكثر غفلة من

---

(١) إبراهيم : ٢٠ .

الناسين لذكره ، لأن ذكره سواه اهـ .

يعنى أن الذاكرين الله بالقلوب هم فى حال ذكرهم لله بلسانهم أكثر غفلة من التاركين لذكره ، لأن ذكره باللسان وتكلفه يقتضى وجود النفس وهو شرك ، والشرك أقبح من الغفلة ، هذا معنى قوله : لأن ذكره سواه ، أى لأن ذكر اللسان يقتضى استقلال الذاكر ، والفرض أن الذاكر محو فى مقام العيان .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : حقيقة الذكر الانقطاع عن الذكر إلى المذكور وعن كل شىء سواه ، لقوله تعالى :

(وَاذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا)[1] .

وقال القشيرى رضى الله عنه : الذكر اندراج الذاكر فى مذكوره ، واستظلام السر ظهوره ، وفى معنى ذلك أنشدوا :

ذَكَرْتُكَ لَا أَنِّى نَسِيتُكَ لَمْحَةً ... وَأَيْسَرُ مَافِى الذِّكْرِ ذِكْرُ لِسَانِى
وَصِرْتُ بِلَاوَجْدٍ أَهِيمُ مِنَ الْهَوَى ... وَهَامَ عَلَىَّ الْقَلْبُ بِالْخَفَقَانِ
فَلَمَّا أَرَانِى الْوَجْدُ أَنَّكَ حَاضِرِى ... شَهِدْتُكَ مَوْجُودًا بِكُلِّ مَكَانِ
فَخَاطَبْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ... وَشَاهَدْتُ مَوْجُودًا بِغَيْرِ عِيَانِ

وفى هذا المقام يتحقق المريد بعبادة الفكرة أو النظرة ، وفكرة ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : أوقاتنا كلها ليلة القدر : أى عبادتنا كلها مضاعفة مع خفائها وتحقيق الإخلاص فيها ، إذ لايطلع عليها ملك فيكتبه ، ولاشيطان فيفسده : وفى ذلك قال بعضهم ، قيل هو الحلاج :

قُلُوبُ الْعَارِفِينَ لَهَا عُيُونٌ ... تَرَى مَا لا يُرَى لِلنَّاظِرِينَا
وَأَلْسِنَةٌ بِأَسْرَارٍ تُنَاجِى ... تَغيبُ عَنِ الْكِرَامِ الْكَاتِبِينا
وَأَجْنِحَةٌ تَطِيرُ بِغَيْرِ رِيشٍ ... إِلَى مَلَكُوتِ رَبِّ الْعَالَمِينا

---

(١) المزمل : ٨ .

وقد ذيلتها ببيتين فقلت :

وَأفْئِـــدَةٌ تَهيمُ بِعِشْقِ وَجْـدٍ إلَى جَبَرُوتِ ذِى حَقٍّ يَقِينَا
فَإنْ تُرِدَنْ تُبَاكِرُ ذِى المَعَانِي فَبَذْلُ الرُّوحِ مِنْكَ يَقِلُّ فِينَا

obeikandl.com